بسم الله الرحمٰن الرحيم

تاريـخ الدوَل وحكم الإسلام

لم يزكِّ الشرع تزكية عامة مطلقة بعد زمن النبوة ويجعلها أسوة في الاقتداء غير الخلافة الراشدة.

ولا يعني هذا أن ما بعدها من الدوَل لا خير فيها، أو أنها غير إسلامية كما يعتقد الخوارج، بل حتى في الأزمنة المتأخرة يقول النبي ﷺ: «تعرفون وتنكرون».

وحكم الأمراء أو الخلفاء من البداية إلى النهاية واحد في طريقة التعامل معهم شرعًا.

غير أن الصحابة -رضوان الله عليهم- لهم حكمهم الشرعي الخاص بهم؛ من وجوب محبتهم، وموالاتهم، وتلقي الوحي عنهم، والاعتبار والاعتداد بفهمهم، مع كف اللسان تمامًا عنهم. هذا حكم الله المفصَّل والواجب فيهم.

أما الحكام المسلمون؛ أمراء أو سلاطين أو خلفاء أو ملوك أو غير ذلك من الأسماء، فحكم الله المفصّل أيضا فيهم واحد.

وحكم الإسلام في الدولة والموقف منها يتبع حكم حاكمها أو قائدها، متى ما كان مسلمًا وكانت بيده السلطة. وذلك من ناحية السمع والطاعة، والمشاركة والتعاون في الأمور العامة، ولزوم النظام المصلحي العام في كل ما لا يخالف الشرع.

وقد يكون البلد مسلمًا لأن أكثر قاطنيه مسلمين -على الصحيح- لكن قد لا يحصل العمل بأحكام الإسلام.

وقد يكون أكثر أهل البلد كافرين ويكون الحاكم مسلمًا ويبقى على إسلامه، وإن كان نظام البلد مرجعه لغير الإسلام وأكثر أهله غير مسلمين، كما في مثال النجاشي -رضي الله عنه وأرضاه-.

وقد أولع الناس في هذا الزمن على حرث تاريخ الدوَل القديمة والحديثة لخدمة أهوائهم ومصالحهم بالبغي والعدوان، بالانتقاء والاختيار والتوظيف الباطل.

متناسين عمدًا أن التاريخ ليس مصدرًا للدين، وأن التجارب البشرية ليست حكمًا على الإسلام، وأن التاريخ قد ملأته الفرق بالكذب على خصومها وتقديس من تتخذه قنطرة لأهدافها.

وقصارى التاريخ: تجربة، وحكمة، وعظة، وتسلية، ومصدرًا للدراسات الاجتماعية.

وحكم الإسلام في الحاكم المسلم في البلد المسلم واضح مفصّل كالشمس في الدين، خلاصته:

- اعتقاد صحة ولايته.
- والتسليم له بحق السلطة والحكم.
- وتحريم منازعته والخروج عليه.
- وطاعته في المعروف.
- والإنكار عليه بالسر إذا ترجحت المصلحة.
- ومعصيته في المعصية.
- ولزوم المجتمع المسلم الذي هو جماعته، والتعاون على البر والتقوى.

وكل ذلك جرى تفصيله في الوحي وفي كلام الصحابة.

والانحراف الديني عن الدين الحق أيضًا يبتدئ من هذه النقطة:

- بالإنكار العلني باللسان على ولي الأمر.
- ثم الخروج بالسيف.
- أو الخروج بالديمقراطية، واستثمارها في صالح الخروج وطلب السلطة، كما تجده في هذا العصر.

فهدف الخوارج الأولى والأخرى واحد، لكن اللباس والوسائل واللغة قد تختلف.

ومن أحسن الناس إفصاحًا عن مذهب خوارج هذا الزمان: سيّد قطب -رحمه الله- في كتاباته، فهو الإمام الشارح والمبيّن لحقيقة فكر الجماعات وفكر الخوارج الحديث، فتجده:

- يمدح الخوارج الخارجين على عثمان الخليفة الراشد -رضي الله عنه-.
- ويطعن على الصحابة -رضوان الله عليهم-
- وفي الوقت نفسه يمدح النظم الحديثة الكافرة، كما في "أمريكا التي رأيت".

لكن نظرًا لاحتكاك الجماعات المباشر وتبادلهم الثقافة والعلم مع من يأخذ شبه الباطنية مذهبًا دينيًّا، استطاعوا أن يحافظوا على الظاهر الشرعي والديني والصوفي، واستعمال شعار الخوارج (إن الحكم إلا لله) في استمالة جماهير المسلمين في صالحهم سياسيًّا، خاصة مع استعمال المصائب والكوارث التي تصيب المسلمين في استثارة عواطفهم ونصرتهم.

وفي الوقت نفسه يجرون مع سائر التيارات السياسية في تبني النظام الديمقراطي بكل ما فيه مع القوانين الوضعية في المسار العملي الذي يبنى عليه العمل السياسي.

والعمل السياسي المعاصر يحتاج إلى نوع احتراف في الجمع بين النقائض الفكرية والمصلحية في وقت واحد، وأحسن مهيّئ لذلك هو الطوائف والفرق الدينية التي يقوم تدينها على ظاهر وباطن، وعلى قابلية لتطوير الطرح بحسب المصلحة، وهذا سبب زيادة تفرق الفرق المنحرفة مع الوقت.

وعودًا على أصل الموضوع، فمن فضل الله -عز وجل- وإحسانه وكرمه على عباده بهذا الدين أن جعل قضية الدولة ونظام الحكم في غاية من الوضوح والبيان في كليمات يقولها النبي -صلى الله عليه وسلم- في اعتقاد وطريقة التعامل مع الحاكم المسلم، ولا يحتاج المسلم ولا المسلمون إلى كل هذا الكم الرهيب من البحوث القانونية والفلسفية للبحث عن مبادئ ونظام يحقق للبشرية ما تريد من الأمن أو الاستقرار.

وهاهو الغرب الكافر وأمريكا والعالم تترنح حياته في تجربة نظامه الديمقراطي وتطويره، ولم يصل إلى نقطة جامعة مستقرة واضحة ينطلق منها، ولا يزال الصراع على أشده حربًا ونصرة للظلم والبغي والعدوان وازدواج المعايير -كما في التعبير السائد-.

فالإسلام الحق والسنة قلعت التجربة بالإنسان وحياته من جذرها بإيجاب السمع والطاعة، وتحريم الخروج على الحاكم المسلم، وترك منازعته؛ سدًّا لأبواب الشر وفتحًا لأبواب الخير. بينما تفتح الديمقراطية شهية كل ساقط ومتعصب وذي هوى وطموح ليقدم من الشارع -أو من سفل الحقد والحسد والشعور بالنقص- على رؤوس الناس؛ لينظر ماذا يمارس ويصنع!

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل، ويخوَّن الأمين ويؤتمن الخائن، ويهلك الوُعول وتظهر التُّحوت».

قالوا: يا رسول الله، وما الوعول وما التحوت؟

قال: «الوعول: وجوه الناس وأشرافهم، والتحوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يُعلم بهم».

[السلسة الصحيحة: ٣٢١١]

كتبه: الشيخ أحمد السبيعي حفظه الله

الاثنين 11 ذو الحجة 1445هـ

الموافق 2024/6/17م